المقاربات النظـرية للتربــية البيئــية

الدكتورة: فتيحة طويل
جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

تحاول هذه الدراسة إبراز مختلف الاتجاهات النظرية السوسيولوجية التى تتناول العلاقة بين الإنسان والبيئة، والتأثيرات المتبادلة وموقفها من البيئة ونظامها، وإستراتجية اقترابها من التربية البيئية وتنمية الشعور بالمسؤولية اتجاه قضايا البيئة، والالتزام بالمحافظة عليها وحل مشكلات البيئة، لتحقيق التنمية المستدامة.

Abstract :

This study tries to know the different theoretical, sociological directions that takes into consideration the relation between human and environment with the exchangeable influences and the is opinions toward environment and its system with the strategy that makes them closely to the environmental education and helps them to grow up the responsible feeling toward environmental cases, take care of environment and solve the different problems to satisfy the continuous progressing.

مقدّمة:

لقد اتسعت دائرة اهتمام علم الاجتماع، وظهرت له عدة فروع، تحاول علاج وتفسير العديد من الظواهر الاجتماعية، التي أفرزها التقدم الاقتصادي والاجتماعي، وما أحدثه من صعوبة للحياة. ولعل دراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة؛ من أكثر قضايا هذا العصر؛ التي يسعى علم الاجتماع البيئة كأحد فروع علم الاجتماع؛ لدراستها وتقديم التفسيرات الناجعة، خلال الربع الأخير من القرن الماضي، مستعينا بمناهج ونظريات علم الاجتماع، وبالدروس التي انطوى عليها تاريخ العلاقة بين الإنسان والبيئة، خاصة عندما فتح كتاب "**تشارلز داروين CH. Darwin**" عن أصل الأنواع؛ المجال لبحث علاقة الكائن الحي بالوسط الذي يعيش فيه، ليصل "**أرنست هيكل Ernest Haeckel** " لمفهوم يعبر عن تكيف الكائن الحي؛ مع الوسط الذي يعيش فيه، ويهتم بدراسة علاقات الكائنات الحية بالبيئة التي توجد بها؛ أطلق عليه "**إيكولوجي Ecologie** "، معتبرا أن الحياة هي نضال مستمر للكائنات الحية، بهدف التوافق والتكيف مع البيئة، والحفاظ على بقاء النوع في بيئة محدودة ودائمة التغيير.

كما تحدث أفلاطون وأرسطو؛ في مرحلة الفكر الاجتماعي، عن العلاقة بين حجم السكان المناسب للمدينة والدولة، في حين أرجع ابن خلدون في مقدمته، كثير من الظواهر الاجتماعية الموجودة في المغرب والسودان ومصر، إلى عوامل إيكولوجية بالمفهوم الحديث، كأثر الهواء باختلاف البشر، وعند مقارنته بلين أحوال الحضر والبدو في اختلاف الأجيال، والذي يرجع لتفاوتهم في المعاش.

وفي العصر الحديث؛ حاول "**مونتسكيو Montesquieu** " في كتابة "**روح القوانين**"، أن يخضع السلوك البشري للضوابط البيئية الطبيعية، حيث أشار إلى العلاقة بين النظم والتشريعات، وبين طابع المؤثرات الجغرافية؛ بخاصة طابع المناخ، وأن فهم المؤثرات الجغرافية، يمكن من فهم السمات المختلفة والمميزة لشعوب العالم، كما يمكن من تحديد القوانين والتنظيمات المناسبة؛ لكل نمط من

أنماط التربية المتنوعة. كما نظر "**هربرت سبنسر**"؛ إلى الكائن الحي والمجتمع؛ على أساس التفاعل بين كل منهما، والبيئة التي يوجد فيها.

ومع بداية القرن العشرين؛ نجد اتفاقا بين علماء الاجتماع الذين تغيرت رؤيتهم للمجتمع، بعد تأكيدهم على المدخل الإيكولوجي في دراسة المجتمع، كالعالم "**ليستر وارد Lester Ward**"، الذي ميز بين النسق الاجتماعي في النشأة، والتطور التلقائي للبناءات والوظائف الاجتماعية، وبين العمل الإصلاحي والمقصود، والواعي في ظل التوجه الإيكولوجي. والعالم "**روبرت بارك Park**" الذي اكسب مجموعة من المفاهيم السوسيولوجية معاني إيكولوجية، كالتفاعل الاجتماعي والاتصال والعملية الاجتماعية للصراع، وغيره من علماء الاجتماع؛ "**كبرجس وماكينزى**"...، الذين كان لهم الإسهام المبكر في المعرفة الإيكولوجية في دراسة المجتمع، محددين جوانب إيكولوجية كدراسة للعلاقات المكانية والزمنية للكائنات الإنسانية، تلك العلاقات التي تحددها قوى البيئة الاقتصادية والتوزيعية والتوافقية [(1)] .

الأمر الذي أكده "**كاتون و دانلاب**" في بحثهما المنشور عام 1979، واعتبرا الايكولوجيا البشرية الجديدة؛ هي التي ترتكز على التفاعل بين البيئة الفيزيقية والتنظيم الاجتماعي والسلوك، وأدخلا موضوعات البيئة المغطاة والكوارث، وتقديم الآثار الاجتماعية في مجال البحث في علم الاجتماع البيئي. وفي نفس المجال؛ حدد" **بيتل Bu ITL**" عام 1987 مجموعة من الموضوعات؛ كالايكولوجيا البشرية الجديدة، والاتجاهات والقيم والسلوكيات البيئية، ومختلف الحركات البيئية، والعمل على تقويم المخاطر التكنولوجية، إلى جانب الاعتماد على الاقتصاد السياسي والسياسات البيئية [(2)]، بهدف البحث في علم الاجتماع البيئة، هذا العلم الذي يأخذ من تراث علم الاجتماع الفكري والإيديولوجي، نماذج سوسيولوجية تربوية متعددة وحاكمة، تقترب من التربية البيئية، وتتناول العلاقة بين الإنسان والبيئة، والتأثيرات المتبادلة وموقفها من الطبيعة، ونظامها الإيكولوجي ونظام إعالة الحياة كـ:

1-مقاربات البنائية الوظيفية:

تقوم البنائية الوظيفية؛ كمقاربة نظرية على تصور نسقي للمجتمع، حيث تعد البيئة نسقا وظيفته إمداد مقومات الحياة الأساسية، المتكونة بفعل الاتزان القائم بين المكونات الحية وغير الحية، وبين العلاقات الوظيفية عند المخلوقات الحية، وبين الطبيعة و أدائها لهذه الوظائف، ضمن مجموعة من الضرورات الوظيفية؛ التي ينبغي القيام بها في البيئة، والتكيف معها ومن أجلها، لكي تستمر بالعطاء ولا تهدد استمرارها وتوازنها، فهي تسعى إلى المحافظة على نمط الحياة الاجتماعية، من خلال اتجاهات معرفية مشتركة، وتوزيع الأدوار والتكيف مع البيئة، من خلال المعايير والضوابط المنظمة للسلوك، والتنشئة الاجتماعية، وتحقيق أهداف المجتمع، ووجود التكامل الاجتماعي.

فتظهر ضمنيا نظرة"**ماكس فيبر**"للبيئة في تقريره؛ بضرورة الترشيد خلال المشروعات الاقتصادية والإنتاج للجماهير، فهو هنا يشجع على حماية موارد البيئة من الاستنزاف، الذي يؤدي إليه الاستخدام غير الرشيد لها، كما يدعو إلى ضرورة أن يكون الإنتاج يهدف إلى تحسين جودة حياة المواطنين، وليس الإضرار بها. ومن خلال أفكار"**بارسونز**" التي تضمنتها نظريته؛ يعتبر البيئة نسقا يسعى إلى تحقيق حالة من التوازن، عن طريق التفاعلات المتوائمة الحادثة من قبل الفاعلين، ومن خلال وظائف التكيف وتحقيق الهدف، والتكامل والحفاظ على النمط الذي يقوم به النسق، دون استنزاف مضر به، وتمثل المشكلات البيئية، كالتصنيع والتقدم التكنولوجي، وعمليات التوزيع والاستهلاك عن الخلل الوظيفي الذي يفقد النسق توازنه واستقراره، ويستنفذ جزءا من موارده لإعادة التوازن [(3)] .

هذا التوازن الذي يتطلب من الفرد تعديل نفسه وطرائق حياته، حتى يجد لنفسه مكانا في البيئة الاجتماعية؛ عن طريق تحسين طرق التعامل مع الأشياء، وإحداث تغيرات في النظم الاجتماعية، وفي نسق القيم، ومبادئ الأخلاق، والتربية، وإعادة تنظيم المجتمع، من خلال حسن أدائه للأدوار، وهو ما نطلق عليه

التكيف، وبالتالي فإن التربية الوظيفية مطالبة بإعداد الفرد وتنشئته، لأداء الأدوار المتوقعة منه، خدمة للوظيفة العامة والبنية الاجتماعية نفسها .

وأقرب مثال على هذا الأمر نراه في **نظرية رأس المال البشري**، التي ترى بأن التربية مقابلة ومناظرة للمال، من خلال دورها في مساعدة الفرد؛ على شغل مكانة في البنية الإنتاجية للمجتمع، باعتباره يمثل عنصرا وموردا إنتاجيا له عائده الاستثماري، الذي يعود بدوره على دخل المجتمعات غير الرأسمالية، لتعظيم عوائدها الإنتاجية في مواجهة الرأسمالية.

كما تسهم نظرية" **داروين**"؛ التي ترى الصراع في سياق التوازن وسط البيئة، حيث يرى أن الكائنات الحية تمارس شتى أساليب التكيف في صراعها مع البيئة، ويتحقق نوع من التوازن الطبيعي في البيئة، فهو يعترف بالصراع؛ باعتماد الكائنات الحية في حياتها على كائنات أخرى، ولكن نسبة الفاقد من الكائنات الحية، يعوض بشكل متكافئ من محاولات الضحايا؛ زيادة معدلات التكاثر، وتبادل الاعتماد على كائنات أخرى، بحيث تصبح المحصلة في النهاية؛ شكل من أشكال التوازن. كما يمكن أن نرى هذا في كتابات "**هرندورف والفيبرية الجديدة**"، التي تعني أن التربية يجب أن تشرع لتحديد مكان مسبق للفرد، يؤدي من خلاله دور في تحقيق الوظيفة العامة للجميع، مخالفة بذلك "**ماكس فيبر**" في الفكر الاجتماعي التقليدي، الذي حول المجتمع إلى بيئة صارمة؛ تتحدد فيها أدوار الأفراد بشكل مسبق، لتربيتهم في بيئة بيروقراطية [(4)].

كما ظهرت **نظرية أومدخل النظم** ضمن نموذج التكيف؛ كنتيجة لحتمية التطور والتغير الحضاري، الذي استدعى مختلف المؤسسات التربوية، بضرورة الأخذ بالنظرة التكاملية للأمور، التي تقوم وفق نظم خاصة، يجري التصميم والتحليل والتشخيص والتدخل في البرامج والمناهج المدرسية وتقنيات التعليم، كنظام فرعي من النظام الكلي للعملية التعليمية التعلمية، من أجل تحقيق أهدافها وحل مشكلاتها، وفق نظرة كاملة ومتكاملة للعملية التربوية، التي تعتمد على تحديد جميع العناصر أو الأجزاء في الموقف التعليمي، وتحديد العلاقات الموجودة

بين كل جزء والآخر من جهة، وبين كل جزء والكل من جهة أخرى، ويتألف من مدخلات وعمليات النظام ومخرجاته، والتغذية الراجعة المرحلية والنهائية [5]، كما تعمل كأسلوب لتحليل المواقف العلمية، بهدف تحسين فاعليتها ودمجها بشكل أفضل مع بيئتها التعليمية والاجتماعية، وطريقة في التفكير والبحث والتخطيط والتدريس، من أجل المشكلات الإنسانية المختلفة كالمشكلات البيئية، هذه الطريقة التي تعني أن الكل يتألف من مجموعة عناصر متكاملة ومتفاعلة، وتعتبر الغلاف الغازي نظاما وطرائق التدريس نظاما...، حيث تساعد نظرية النظم على كشف العلاقات الكمية والكلية، والتفاعلات ضمن النظام الذي يقوم على الكلية، والتفاعل والتكامل في العلوم الطبيعية والاجتماعية، وشموليتها في معالجة المشكلات الناتجة. بعدما تعددت الفروع العلمية في مختلف العلوم، ولأن أجزاء النظام لا تكون قابلة للفهم عند عزلها عن بعضها، بغية تكييف النظم لتحقيق أقل التكاليف وبفاعلية أكثر، كما يمكن أن تساعد في برامج التربية البيئية؛ التي تتفاعل فيها أنظمة التربية وتتكامل، لتكوين أشخاص ذوي كفاءات علمية عامة، تهتم بمشكلات النظم؛ التي تنشأ عند تحول الأجزاء إلى وحدة كاملة، تتفاعل فيها مكونات البيئة في نظام واحد، وأنظمة التربية وتكاملها في التربية البيئية[6]. وللوقوف على أهم المبادئ التي يسترشد بها عند تخطيط وتحليل وتشخيص نظام يعالج قضية تربوية أو بيئية ما راجع .[7]

ومن خلال ما تطرحه هذه **الاسهامات النظرية**، نستطيع القول: أن فلسفتها التربوية تنهض على أن الإنسان يصنع حياته؛ من خلال تعديل نفسه وطرائقه في الحياة، بغية تحقيق توازن بينه وبين بيئته الطبيعية والاجتماعية، حيث تستهدف التربية في ضوء هذه الاسهامات النظرية، اكتساب الإنسان المعارف والمهارات والقيم، وتنمية الوعي الأخضر؛ الذي سينير الوعي اللامبالي، لتحقيق أعلى مراحل التوازن والتكيف بينه وبين بيئته [8] .

الامر الذي يمكننا من استعارة مفاهيم هذه الإسهامات النظرية، التي تبين نمط العلاقة بين الإنسان وبيئته، لبناء تربية بيئية؛ تهدف لتكوين المعرفة الصحيحة حول

البيئة، حيث يهيمن الهدف المهني على أغراض التربية المختلفة، وتقوم في التعليم على النظرية السلوكية.

أما من حيث الأدوار فإنها توضح الأهداف، والأدوار الخاصة بالتربية من خارجها، وتؤخذ باعتبارها أمرا مسلما به، بحيث يتضمن المنهج حلولا معدة مسبقا لمشكلات البيئة، ويكون مصدر القرارات هو سلطة المعرفة؛ من خلال الخبرات التي تدور كلها حول البيئة. حيث يعتمد دورالمدرسين على السلطة الكامة في المعرفة. في حين يتحدد دور الطلاب؛ باعتبارهم متلقين لمعرفة منظمة من ناحية، ومن ناحية ثانية تتحدد العلاقة بين المعرفة والقوة، من خلال جعل المعرفة سلطة قدرية يتلقاها الطالب؛ وهي ذات أهداف شعبية شخصية بينها الخبراء، ويكون مصدر السلطة هو أنظمة تربوية؛ تقوم على مبادئ تنظيمية محددة، وعلاقات القوة داخل التنظيم التعليمي هي علاقات مدعمة.

وأخيرا يكون بناء التربية البيئية؛ من خلال النظرة إلى المجال البحثي فيها، حيث يكون بحث تطبيقي، موضعي أداتي، كمي فردي، يقوم على مبدأ الحتمية، ويصمم البحث في ضوء خطة موضوعة مسبقا وصارمة، بحيث يكون الباحثون في التربية البيئية؛ مجرد خبراء يتعاملون مع الظاهرة من الخارج .[9]

2.المقاربات التأملية:

تشمل المقاربات التأملية؛ على مجموعة من الإسهامات التحليلية النقدية الرمزية، المتمثلة في **الفينومونولوجيا، والاثنوموتودولوجيا، والتفاعلية الرمزية**. هذه المقاربات التي ترى في نظريات التكيف نظريات رجعية، تجعل من التربية أداة لتحقيق انصياع الفرد للمجتمع، حيث تجمع فيما بينها فكرة التأويل من أجل الفهم، وهي رؤية تنطلق منها التربية التأويلية؛ حيث يمثل كل فرد ذاتا متمايزة منفردة، تستحق أن نقبل على فهمها ببراءة، فكل الأفراد والأشياء تحتاج منا إلى تأويل، ينبع من سياق تجارب الآخرين، ورؤيتهم لما عداهم من أشياء و أشخاص؛ لأن التأويل في جوهره وبساطته هو بحث عن الدلالة والمعنى، وهو أداة الإنسان للوصول إلى الفهم.

فالفينومونولوجيا تبحث عن المعرفة الحقة؛ من خلال الوصول إلى أشكال القصد، متجردين من أي أحكام وخبرات سابقة، قد تعوق تكوين أحكام تخص الآخر، مع العلم أن مثل هذا القصد يحتوي على الدلالة، كمعنوية الشيء في السياق العام، واختصاصها بأسلوب معين يحضر أمام الشعور، وما يجمع هذه الاتجاهات هو عنصر التفاعل الرمزي وإعطاء القيمة الكبيرة للفرد، وما ينطوي عليه من خصوصية تحتاج منا إلى قراءة متأنية له، عند التعامل معه في مجال التربية، بصورة عامة والتربية البيئية بصورة خاصة.

إذ تقوم التربية في **التفاعلية الرمزية؛** على مفهوم تداخل الذوات Intersubjective، الذي يبدأ من التفاعل الرمزي؛ بين الأفراد في الحياة اليومية، كاشفا عن دور ومعاني الرمز في تعبير الأفراد عن ذواتهم؛ في التفاعل اليومي مع الآخرين وسط المجتمع، كما يحاول كل فرد في التفاعل الاجتماعي أن يتحكم في تعبيراته، ساعيا في الوقت نفسه إلى احتراف انطباعات الآخرين، من أجل الوصول إلى مشاعرهم ومقاصدهم الحقيقية.

الأمر الذي يميز التربية كآلية اجتماعية، من خلال معاينة الفرد لأحداث الآخرين، أي أننا حين نربي الآخرين فعلينا أن نتعلمهم، كما تقول **الاثنوموتودولوجيا،** وهي نظرية في المنهج الاجتماعي؛ تنبذ التفاعل الكمي مع الظواهر الاجتماعية، وترى أن أساليب الاقتراب من الفرد هي كلها أساليب كيفية، مثل المقابلة والملاحظة بالمشاركة، ومن ثم تصبح المدرسة مؤسسة تعتمد على المرونة، وعلى مبادءات الأفراد وإبداعاتهم في بناء أهدافهم، سواء كان ذلك الفرد معلما أو تلميذا، دون أن يصل الأمر إلى حد الفوضى.

وفي ظل هذه الاسهامات التأملية، تحاول التربية البيئية أن تقوم من حيث أغراضها؛ على أغراض ليبرالية تقدمية، حيث تتأسس نظرية التعلم فيها على بناء الواقع، إذ ينظر للتربية البيئية باعتبارها أنشطة في البيئة وليست حولها، أما من حيث أدوار التربية البيئية، فتشتق أهداف التربية من الخارج كنتاج حوار ومداولات، يكون فيها المدرسون منظمين للخبرات التي يكتسبها الطلاب من

خلال تفاعلهم مع البيئة، وما يكتسبونه من خبرات نتيجة هذا التفاعل. وضمن هذه الخبرات البيئية وتأويل المتعلمون للبيئات المختلفة، يتم بناء المنهج والكتب المقررة، كما تشتق التربية البيئية من حيث المعرفة والقوة على خبرة الفرد؛ الذي يكون مصدرا أساسيا لمبادئ المنظمة والسلطة، مع العلم أن علاقات القوة في الميدان التربوي تكون غير محددة، وأن المعرفة تكون حديثة، نسبية مشيدة، وذاتية شخصيا. أما مجال البحث في التربية البيئية في هذا النموذج، فإنه ينهل على البحث التأويلي الذاتي، القائم على إعادة البناء الكيفي الفردي التنويري، الذي يكون مخططا مسبقا، ولكنه يستجيب للتغيرات التي تفرضها الممارسة .[10]

3- مقاربات الصراع:

تستند نظرية الصراع إلى النظرة المادية للكون والمجتمع، متصورين أن حياة الإنسان منذ بداية نشأة المجتمعات الإنسانية تقوم على الإنتاج المادي، الذي يتحقق بتربية الإنسان تربية مادية إنتاجية، لأن المادة هي أساس الوجود، والإنسان مادة يهدف للتطورالذي يحقق الإنتاج؛ لإشباع حاجاته والمحافظة على المجتمع، من خلال فهم الطبيعة وإدراكها إدراكا حقيقيا، دون إضافة غريبة عليها .[11]

حيث يرجع أصحاب هذا النموذج المشاكل البيئية؛ لطريقة توزيع الموارد في العالم، وكيفية وصولها بأنصبة متفاوتة لكل فرد أو جماعة، وليس للكميات المتاحة من الموارد، مؤكدين أن وحدة الإنسان مع البيئة تظهر دائما مع الصناعة ومع نمو القوى الإنتاجية، التي تظهر كفاحا مستمرا بين الإنسان والطبيعة، أو بين الطبيعة والإنسان؛ الذي يفرض عليها النهاية الخاصة به، وذلك عن طريق الرأسمالية التي تطمح إلى اقتناء الثروات للصالح الخاص لا للصالح العام، عن طريق الاستخدام غير المحدود للموارد الطبيعية والموارد الخام، مما يشعر الإنسان في العالم بالاغتراب اتجاه المجتمع، ويجعله غير مبالي لمدى الاستنزاف الحاصل للموارد الطبيعية، وما يخلفه من مشكلات بيئية تواجه النسق الإيكولوجي؛ في ظل الرأسمالية المستغلة. وهذا ما يؤكده "**إنزنيرج Enzensberger**" حقيقة عن التغيير الإيكولوجي، الذي يقصد به التحطيم والتلوث البيئي، والذي يأتي فقط من خلال ما تقوم به

البرجوازية، لتحقيق ظروف حياة خاصة دون النظر إلى الأضرار البيئية المصاحبة للتصنيع.

ويستعين ماركس بمبادئ الاقتصاد السياسي ليتطرق لمشكلة **التحطيم البيئي Environnemental Détérioration**، المصاحبة للمجتمع الرأسمالي والمؤثرة على البيئة بشكل فعال، بحيث يرى أنه نتيجة وجود فجوة بين الدولة ومواطنيها من حيث القوة، حين تفرض على مواطنيها استنزاف موارد البيئة لصالح فئة خاصة وحدها، لا يعنيها ما يلحق بالبيئة من تحطيم أو نفاذ لمواردها، وإنما مصالح البيئة المستغلة [12]، أومن خلال التربية التي يجعلها أداة لتحقيق انصياع الفرد للمجتمع، أو انصياع الطبقات الفقيرة مسلوبة الوعي لطبقات صاحبة المنفعة في المجتمع الرأسمالي.

ومن ثم فإن التغير في هذه الايديولوجيا يعني تحرير الإنسان من الاستغلال والقهر الطبقي، حيث ينعكس هذا الإيمان بالتغيير في سياق العدالة؛ على التربية البيئية، فتصبح هي أيضا أكثر تفاؤلا وتقديرا لقيمة الإنسان، من خلال إصلاح البيئة من ناحية، والأبعاد الاجتماعية الأخرى من سياسية واقتصادية وتربوية، التي تحتاج لمعالجة منفردة من ناحية أخرى، كأن يحاول الإنسان أن يدفع ضررها، ويتجاوز أزمتها ومشاكلها بالتغلب عليها؛ بتنمية الوعي وتغيير المعتقدات الثقافية، والسيطرة على العلم والتقنية [13] .

لأن التكوين الاجتماعي يكشف أن بنية المجتمع تتكون من بنية تحتية، تضم النسق الإيكولوجي والاقتصادي، والبنية الفوقية التي تمثل النسق التربوي والسياسي، ومحرك المجتمع في هذه الحلبة على أرض الواقع هو النسق السياسي، لأن السياسة هي العامل الفعال لإدارة العلاقة بين الفكر والواقع، وإدارة البيئة هي إدارة في سياق علاقات الإنسان بالبيئة، الأمر الذي يلقي بظلاله على التربية البيئية، فهي تشكل وفق هذه الإستراتيجية العامل الاقتصاد السياسي، عندما ترتبط بين الفقر والجهل والمرض من ناحية، وبين المشروعات الإيكولوجية المتجهة نحو التنبؤ في الفضاء الخارجي من ناحية أخرى.

وضمن هذا الطرح، تحاول التربية البيئية وضع أغراضها التي تشكلت من إطار نقدي، حيث تقوم نظرية التعليم فيها؛ على قدرة الإنسان على إعادة صياغة واقعه، لأن التربية البيئية تعمل فعلا من أجل الإنسان تحقيقا لطموحاته في هذا الوجود، ولن تتحقق هذه الطموحات بغير بيئة نظيفة ومتوازنة.

أما من حيث الأدوار التي تسعى لتحقيقها التربية البيئية في هذا المجال، يمثل دور أهداف التربية البيئية دورا نقديا، وترى باعتبارها أيقونات للإيديولوجيا. ويكون دور المدرس دورا تعاونيا؛ يشارك فيه بخبرته الطلاب في البحث عن المعرفة البيئية، لأن الطلاب مولعون بالمعرفة بشكل فعال، وهذا بفضل ما يفرضه المنهج من فرص للمتعلمين، للمشاركة في إعادة صياغة البيئة، سواء كانت مشكلات بيئية أم لا، في شكل دراسة نقدية؛ تقدم ضمن تقارير متنامية، يتكون منها محتوى المقررات.

أما من حيث المعرفة والقوة، فالقضايا البيئية تمثل المصدر الرئيسي للسلطة، والمبادئ المنظمة لها، باعتبار المعرفة قوة توالدية متنامية؛ فيها تحيين للفرص التي تقوم على التعاون، ومشتقة بطريقة ديالكتيكية من البحث والتقصي، حيث تعكس علاقات القوة؛ التحديات التي تواجه الإنسان بشكل مستمر، وهي تحديات لا تقتصر على البيئة، وإنما يصنعها وفق طموحاته ورؤيته للعلاقة بينه وبين البيئة.

أما من حيث نظرتها للبحث البيئي، فالتربية البيئية ترى أن البحث عملية علمية اجتماعية نقدية جدلية خاصة؛ بين علاقات البنى والأفراد، التي تستهدف إعادة البناء بشكل كيفي وتعاوني، حيث ينمو تصميم البحث من خلال المشاورات بين الأطراف المشاركة في عمليات إعادة بناء البيئة .[14]

كما نجد العديد من المدارس؛ التي اختلفت وجهات نظرها، حول تقويم العلاقة بين الإنسان وبيئته، كـــ:

4- المدرسة الحتمية البيئية:

لقد أولت هذه المدرسة اهتماما كبيرا للبيئة الطبيعية في مجال العلاقة بين الإنسان والبيئة، إذ ترى أن الإنسان يتواجد في بيئته؛ التي تؤثر فيه تأثيرا كبيرا وليس له خيار، وكأنه كائن سلبي اتجاه قوى الطبيعة، وما عليه إلا أن يتكيف معها ويعيش في حدودها وإمكانياتها، في ظل حركة مركزية حتمية جاذبة من البيئة إلى الكائنات الحية والمجتمعات الإنسانية، مؤكدة أن النظم الثقافية والاجتماعية تنشأ وفقا للتربية الفيزيقية والمنظومة البيئية، وأن جميع الاختلافات القائمة بين المجتمعات الإنسانية، مردها إلى الاختلافات المتباينة في الظروف البيئية والجغرافية (15).

وقد برزت هذه الآراء بشكل واضح في كتاب "**فرديريك راتزل Friedrich Ratzel**"، الذي نشرعام 1822 تحت عنوان "**جغرافية الإنسان**" مؤكدا أن الإنسان يعيش في بيئة تؤثر فيه تأثيرا كبيرا، وعليه أن يتكيف مع بيئته ويعيش على ما يجود بها من موارد، لتؤكد تلميذته "**آلان سميل**" على أن الإنسان ابن الطبيعة، وأن الطبيعة هي التي تطعمه وتحسن إليه أحيانا، وتعلن عليه التحدي أحيانا أخرى، وهي التي تتلاعب به وتهمس له في أذنه بحل العقد المستعصية؛ التي يكون بموجبها هذا التحدي، لدرجة أنكر "**ديمولين**" على الإنسان ما أوتي من عقل وتفكير وعلم وقدرة، تمكنه من الاستفادة من بيئته بطريقة معينة أو يتحلل من سيطرتها، ليسلب بذلك الفكر الحتمي الإنسان التفكير الإيجابي، والقدرة على تحدي المعوقات الطبيعية، ويجعل منه إنسانا مسيرا بالدرجة الأولى، تأخذ بيده الطبيعة وتبصره (16). وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في العصور الوسطى من خلال كتابه الشهير **مقدمة ابن خلدون**، واصفا أثر الهواء في أخلاق البشر، والمناخ في طبائع الشعوب، واختلاف البيئات في حياة سكانها...

ومن كل ذلك يبدو أن ما أقرته **المدرسة البيئية أو الحتمية**، يختلف مع المنطلقات الفلسفية للتربية البيئية؛ التي ترى أن الإنسان قادرا على التخطيط للتعايش مع البيئة، وتمثل خصائص كل من الإنسان والبيئة مرتكزين لفلسفة

التربية البيئية، فدراسة الأسس الاجتماعية للتربية البيئية أمر حتمي، حيث توضح إبراز دورالعلم والتربية في تطويرعلاقة الإنسان بالبيئة وحل مشكلاتها [17].
لنستنتج أن آراء هذه المدرسة تنطبق بشكل كبير على مختلف أشكال الحياة النباتية والحيوانية، ولكنها أقل انطباعا على الحياة الإنسانية، بدليل كذلك اختلاف البيئات البشرية عن البيئات الطبيعية المتشابهة، والتي لم تفرض أنماطا بشرية متشابهة في مختلف الأزمنة، لأن الإنسان أقل الكائنات خضوعا للبيئة، وهي حقيقة واقعية؛ لما يمتلك من إرادة وقدرات، وإبداعات تحرره من تلك الحتمية، والتي زادت بزيادة تقدم العلم والتطور التكنولوجي .[18]

5- المدرسة الإمكانية:

ترى هذه المدرسة التي تطورت في منتصف القرن العشرين، أن البيئة الطبيعية تقدم للإنسان عدد من الاختيارات والاحتمالات.. وبإرادته يستطيع أن يختار أو يعدل أو يغير منها حسب حاجاته، أومتطلباته وأهدافه وتقاليده، لأن الإنسان يمتلك قدرة وقوة إيجابية فعالة، قادرة على تقرير مصير البيئة، من خلال تكييفها والتحكم والسيطرة على مكوناتها، بفضل قدراته وإمكانياتها ومعارفه العلمية؛ التي يتوصل إليها الإنسان [19]، وتظهر بصماته في التفوق والإبداع الصناعي، وإقامة السدود الضخمة والأنفاق الهائلة، والتحكم في تطور السلاسل النباتية والحيوانية، وغيرها من مظاهر تفوق وتعاظم القدرة الإنسانية؛ التي تجعل من الإنسان سيد البيئة والمسيطر عليها، وليس مجرد مخلوق سلبي غير مفكر، خاضع تماما لمؤثرات وضوابط البيئة الطبيعية، كما ترى المدرسة الحتمية.

إلا أنه في الحقيقة وحسب الواقع المعاش، يقف الإنسان في بعض الأحيان عاجزا عن مواجهة المشكلات البيئية المعاصرة، كالاحتباس الحراري وثقب طبقة الأوزون والفقر...إذ يقف مستسلما أحيانا للبيئة عاجزا عن تسخير معظم الموارد البيئية لصالحه، ولو كان الأمر كذلك لتجانست الأنشطة البشرية بين البيئات الطبيعية المتشابهة [20]، مما يفقد مصداقية هذه المدرسة التي وقفت متحيزة للإنسان، لتأتي المدرسة التوافقية أو الاحتمالية؛ للتوفيق بين المدرستين السابقتين.

6- المدرسة التوافقية (الاحتمالية):

جاءت هذه المدرسة للتوفيق بين آراء المدرسة الحتمية والمدرسة الإمكانية، دون تمييز لطرق على حساب طرق الآخر، وظهرت في مطلع القرن العشرين، خاصة مع تطور وظهور المنجزات الصناعية، لتصور واقع العلاقة بين الإنسان والمجتمع من ناحية، وبين البيئة من ناحية أخرى، لأن البيئات الطبيعية؛ ليست ذات تأثيرات واحدة على المجتمع والإنسان، وذلك من منطلق اختلاف تأثير واستجابة هذه البيئات، واختلاف قدرات الإنسان وإمكاناته في استغلال موارد البيئة، فهي تؤمن بأن الاحتمالات قائمة في بعض البيئات، لكي يتعاظم الجانب الطبيعي في مواجهة سلبيات الإنسان وقدراته المحدودة، كما تنادي به المدرسة الحتمية، ويتعاظم دور الانسان في بيئات أخرى، لمواجهة تحديات ومعوقات البيئة، كما تنادي به المدرسة الإمكانية [21] .

مع العلم أن هناك أربعة استجابات لتحديد العلاقة بين الإنسان وبيئته، تتباين بين الحتمية الواضحة والإمكانية المبدعة، كما صاغها المؤرخ الإنجليزي "**أرنولد توينبي Arnold Toynbee**" بداية باستجابة سلبية؛ يكون الإنسان فيها متخلفا علميا وحضاريا في بيئة حرفة الجمع والصيد البدائي، التي لا يستطيع الإنسان أن يطورها ويقف أمامها عاجزا لتمثل قمة الحتم البيئي، وعندما يؤتي الإنسان بعض المعرفة، يحاول أن يتأقلم جزئيا مع ظروف بيئته الطبيعية، كبيئة حرفة الراعي البدائي أوالمترحل وبيئته الزراعية البدائية، على الرغم من أن البيئة لا تزال صاحبة التأثير الأكبر على الإنسان، مما يدل على تأثير الحتم البيئي. وتظهر أولى درجات الإمكانية عند الاستجابة الإيجابية، التي يحاول فيها الإنسان التغلب على معوقات البيئة وتحدياتها، وتطويع عناصر البيئة الطبيعية الصالحة، وتمثلها حرفة الزراعة غير البدائية والرعي المتطور، والصيد المتطور للوفاء باحتياجاته، ليصل الإنسان إلى قمة الإمكانية عند الاستجابة الإبداعية، ليتفوق فيها الإنسان على البيئة، وتمثلها حرفة الصناعة بصيغة خاصة، باعتبار أكثرها إبراز لشخصية الإنسان وقدراته. وعلى الرغم من محاولة هذه المدرسة التوفيق بين المدرسة الحتمية

والإمكانية، فهي لا تعدو تفسيرا لتاريخ علاقة الإنسان بالبيئة باختلاف البيئات، الأمر الذي يعيد للأذهان روح منطق وفلسفة الحتم مرة أخرى، مثلها في ذلك مثل الحتمية، أكثر من كونها منطلقا لبناء تلك العلاقة .[22]

7- مدرسة التفاعل:

تؤكد هذه المدرسة وجود علاقة تفاعلية بين الإنسان والبيئة، وأن هناك تأثير متبادل بين البيئة ومكوناتها، فالكائن الحي لا يتأثر بكل ما يحيط به من ظواهر كالحرارة والطاقة فحسب، بل أن البيئة هي الأخرى تتأثر بالكائن الحي عن طريق التربية المرتدة الخارجية، التي يسري تيارها إلى البيئة، وهذا ما يشير إليه الواقع؛ فإشباع احتياجات الإنسان، تتم عن طريق تحويل بعض عناصر المنظومة البيئية؛ إلى مصادر ثروة، تزيد من درجة إشباعه لاحتياجاته، إلى جانب بحثه الدائم لمعالجة العناصر المتوفرة في هذا المحيط بتقنيات جديدة لاستخدامها.

إلى جانب هذا تقدم المدرسة التفاعلية، معطيات تساعد على فهم العلاقة بين البيئة والصحة والمرض، حيث أن التفاعل بين المنظومة الطبيعية التي تقدم مجموعة من التغيرات الفيزيقية، مثل المناخ والتضاريس ودرجة الحرارة، والمنظومة الاجتماعية التي تقدم بدورها عددا من المتغيرات، كالتعلم والثقافة والبيئة الاجتماعية والممارسات اليومية، والمنظومة التكنولوجية؛ بما تضم من تقنيات حديثة [23]، تساعد الأفراد والجماعات على المساهمة المسؤولة، والفعالة في بلورة حل المشكلات البيئية، وتنمية السلوك البيئي وتوفير الحياة الكريمة وسط البيئة [24]، كالقدرة على استخدام مياه الشرب النقية، توفير المواصفات الصحية في المساكن مما يعزز الصحة العامة، كما يمكن أن تؤدي هذه التقنيات إلى إحداث التلوث البيئي...، هذا التفاعل الذي يؤثر بشكل أو بآخر في العوامل المهيئة للصحة أو المسببة للمرض.

الخاتمة:

وكخلاصة لهذه الدراسة التي تضمنت مختلف المقاربات السوسيولوجية، ذات الصلة بموضوع التربية البيئية، يمكن القول أنه مهما اختلفت الاتجاهات النظرية التي عكست إيديولوجيات أصحابها في دراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة، فإن ثم اتفاق بين العلماء على أهمية الشعور بالمسؤولية اتجاه قضايا البيئة ودراستها، والالتزام بالمحافظة عليها وأثر التربية البيئية في حل مشكلات البيئية، باعتبارها نسق يؤدي وظائف وأدوار من خلال تكامل أجزائها الفرعية، التي تعمل على توازن وتحقيق التنمية المستدامة، بتنفيذ البرامج الضرورية محليا والمناسبة ثقافيا، والتي تضع في حسابها الظروف البيئية والاقتصادية والاجتماعية؛ ومواجهة المشكلات البيئية وحماية البيئة في الحاضر والمستقبل. لما تحدثه من تغيير في سلوك واتجاهات الأفراد، بعد تزويدهم بالمعرفة والمهارة للتعليم المستمر، الذي يكون وثيق الصلة بالاستدامة.

وذلك لمساعدتهم لإيجاد حلول جديدة لقضاياهم البيئية والاجتماعية والإقتصادية، ساعية لجعل العالم صالحا لمعيشة هذا الجيل والأجيال القادمة. فقط لابد أن يتم استعمالها بالحكمة والتقنين، ومزيد من الجهود الفعلية والميدانية المتعاونة من جميع الأطراف لتنمية الاتجاهات الحقيقية، واكتساب المعارف ومناقشة إطار محتوى التعليم، والتأكد من قابلية تعلم المحتوى والتكيف والتطويع، ووضع ترتيبات تركيبية ومؤسسية... من خلال الاستفادة من مختلف طروحات المقاربات النظرية للتربية البيئية ، ووضعها في إطار شامل ومتكامل يخدم البيئة من أجل التنمية المستدامة.

❖ **هوامش البحث:**

(1) الضبع، عبد الرؤوف. (2004). علم الاجتماع وقضايا البيئة مداخل نظرية ودراسات واقعية. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ص7-12.

(2) الصغير، صالح بن محمد. (1999). بعض المحددات الاجتماعية والثقافية والديمغرافية لمستوى الاتجاهات البيئية-دراسة تحليلية مطبقة على طلبة جامعة الملك سعود بالرياض. مجلة جامعة الملك سعود، ج.11، ص258-259.

(3) حلمي، إجلال إسماعيل، وشادية علي قناوي. (د.ت). علم الاجتماع و المشكلات البيئية. كلية الآداب. جامعة عين شمس ص179-181.

(4) هلال، عصام الدين. (2007). التربية البيئية. القاهرة: مكتبة الأسرة ص46-47.

(5) القلا، فخرالدين، يونس ناصر.(1990). أصول التدريس. (ج.1). كتاب جامعي. سوريا: جامعة دمشق ، ص83.

(6) وهيبي، صالح محمود، وإبتسام درويش العجمي. (2003). التربية البيئية وآفاقها المستقبلية. (ط.1). دمشق سوريا: دار الفكر، ص86-90.

(7) القلا، فخر الدين. (1992). دليل تدريب المعلمين في مجال التربية السكانية. دمشق: نشر مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية وصندوق الأمم المتحدة للسكان.(القلا : 1992، ص50).

(8) domien ,Caroline ,et Philip Cullen . (1998). droit international de l environnement testes de base et références .pub par,p212

(9) هلال، عصام الدين: مرجع سابق، ص43-48.

(10) المرجع نفسه : ص50-53.

(11) الحلبوس، سعدون سلمان نجم. (2002). الفلسفة التربوية البيئية دراسة في تطور الفكر التربوي البيئي منذ بدء التاريخ حتى الفكر الفلسفي المعاصر. منشورات ELGA، ص84.

(12) حلمي، إجلال إسماعيل، وشادية علي قناوي: المرجع السابق، ص175-179.

(13) HARVEY ,BRAIN,John D Halett .(1977 Environment and Society. London: Mac-millan Prss Ltd,P82

(14) هلال، عصام الدين.:المرجع السابق،ص65-66.

(15) قمر، عصام توفيق، وسحر فتحي مبروك. (2004). نحو دور فعال للخدمة الاجتماعية في تحقيق التربية البيئية. (ط.1). المكتب الجامعي الحديث، ص20-21.

(16) الحلبوس، سعدون سلمان نجم: المرجع السابق، ص90-91).

(17) الطائي، إياد عاشور، ومحسن عيد علي. (2010). التربية البيئية. بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب، ص47.

(18) رشوان، حسين عبد الحميد أحمد. (2006). البيئة والمجتمع دراسة في علم الاجتماع البيئة. المكتب الجامعي الحديث، ص90-91.

(19) مطاوع، إبراهيم عصمت. (2001). التربية البيئية في الوطن العربي. القاهرة: دار الفكر العربي، ص64.

(20) قمر، عصام توفيق، وسحر فتحي مبروك: المرجع السابق، ص21-22.

(21) رشوان، حسين عبد الحميد أحمد: المرجع السابق، ص92-93.

(22) الحلبوس، سعدون سلمان نجم: المرجع السابق، ص94-95.

(23) رشوان، حسين عبد الحميد أحمد: المرجع السابق، ص94.

(24) GILLET ,MARGRET. (1977). UN ESCO CONFERENCE ON ENVIRONMENTAL EDRICATION TIBPSI GEORGIA NEWS LETTER WITH THE INTERNATIONAL BURERAU OF EDUCATIONT UNESCOND V.NO.U.DE- CENBER,P1820.